بريطانيا وإيران تلعبان بالنار الشيعية في العراق

01-10-2005

بينما تركزت نقطة الخلاف الأخرى، في التصميم البريطاني لإحباط التأثير الإيراني في جنوب العراق. ففي الوقت الذي انشغل فيه الأمريكان بمواجهة المقاومة السنية، اكتشفت بريطانيا وتتبعت عمليات المخابرات الإيرانية والنشاطات الأخرى في الجنوب العراقي. وكثير من عراقيي الجنوب محتارون من تصرف البريطانيين الذين ضغطوا بقوة لوقف الاتصالات مع الإيرانيين، وأخضعوا بعض العراقيين لتحقيقات مطولة حول علاقتهم بالمخابرات الإيرانية.

بقلم المحرر

كشفت الهجمات القاتلة الأخيرة ضد القوات البريطانية في جنوب العراق وحجز عميلين سريين تابعين للقوات الجوية الخاصة البريطانية (إس أي إس) في البصرة، وقد تم تحريرهما بسرعة مثيرة، عن "هشاشة" الأمن والاستقرار في الجنوب العراقي. وقد مال الإعلام البريطاني، متأثرا بملاحظات مؤسسة الأمن البريطانية، إلى إلقاء اللوم، بخصوص التطورات الأخيرة، على إيران. في حين يرى بعض المراقبين في هذه الملامة تضليلا مقصودا. إذ إن الأحداث الأخيرة في جنوب العراق مردها إلى تفاعلات داخلية، وكذا إلى التعامل البريطاني المستفز مع الشيعة العراقيين. صحيح أن الجيش البريطاني كان حذرا وغير مندفع مقارنة بالجيش الأمريكي التواق لإطلاق النيران، وهذا لرسمصورة "جميلة" تعكس حضوره الكبير في المناطق الجنوبية للعراق. بينما كان الضباط العسكريون المتقاعدون، الذين يعملون وكلاء للعلاقات العامة للجيش البريطاني ولكن بشكل غير رسمي، يظهرون بانتظام في أجهزة الإعلام، في

محاولة لترك انطباع بأن البريطانيين -وبسبب تجربتهم في أيرلندا الشمالية وفي أماكن أخرى- أفضل حقا في التعامل من أبناء عمومهم الأمريكان.

هذا، في أحسن الأحوال، يمثل نصف الحقيقة. ومع أنه لا يمكن إنكار المهارة والتجربة التاريخية للجيش البريطاني، إلا أنهم كانوا متورطين في ارتكاب جرائم وانتهاكات صارخة في العراق.
ولعل بعض المتابعين يرى بأنه لو تمركزت القوات البريطانية في المناطق المركزية الشمالية والغربية للعراق، فإن هناك قليلا من الشك بأنهم سيواجهون الجحيم نفسه التي يكتوي به الجيش الأمريكي.

ومن الواضح أن السياسة البريطانية في التعامل مع الشيعة في مناطق الجنوب، خاصة ما يتعلق بمنح مساحة كبيرة من الحكم الذاتي، وكذا حرية العمل للأحزاب السياسية الشيعية
وميليشياتها، خضعت لحسابات التخطيط الحذر والمرونة، أكثر من اعتبارات قلة الجيش البريطاني في الجنوب. وهذا محل انتقاد من قبل المخططين الأمريكان، إذ يعتبرون أن
الوجودالعسكري البريطاني في جنوب العراق ما زال بعيدا جدا عن حد الكفاية لضمان الأمن على امتداد المناطق الواسعة التي يحتلونها. ويتابع هؤلاء أن هذه القدرة العسكرية المحدودة، منحت تفويضا للميليشيات الشعبية، وبشكل رئيسي لمنظمة بدر (سابقا لواء بدر) التابعة للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق وجيش المهدي التابع للتيار الصدري، بفرض القوة وملأ الفراق الأمني.

ولم يكن أمر اختراق هذه الميليشيات للأجهزة الأمنية في الجنوب مفاجئا، بالنظر إلى القوةالعددية التي تتوفر لديها

والتأثير السياسي والاقتصادي الاجتماعي لمنظماتهم الأم. ولعل المحاولات الأخيرة من البريطانيين لقلب هذا الوضع أدى إلى التوتر، الذي قد يكون سببا في استهداف قواتهم.

والعامل المقلق الآخر بالنسبة للمنظمات الشيعية العراقية، هو نشاطات المخابرات البريطانية في جميع أنحاء العراق، لكن خاصة في الجنوب، والخوف من أنهم يخططون لحضور استخباراتي طويل المدى في العراق.

وتستند هذه المخاوف إلى جملة حقائق ووقائع، حيث إن كل الوكالات السرية المدنية والعسكرية البريطانية لهاحضور في العراق، ويشمل هذا دائرة المخابرات السرية (MI6)، و GCHQ(ذراع المراقبة الإلكتروني للمخابرات البريطانية) والفرع السري للمخابرات العسكرية البريطانية سيئة السمعة في إيرلندا الشمالية وغيرها كثير. حتى جهاز الأمن الداخلي البريطاني (الاستخبارات البريطانية الداخلية) (MI5) وفرع شرطة المدينة الخاص، حاضرينفي العراق. وهذا الحضور الاستخباري المكثف، كان سببا في فقدان الشيعة في الجنوب ثقتهم في البريطانيين..ولعل الأمر راجع أيضا إلى الخبرة والتجربة التاريخية للشيعة مع البريطانيين، الذين فضلوا السنة العرب على الشيعة في العشرينات من القرن الماضي، وهو ما أفرز، حسب بعض نظار وساسة الشيعة، إلى تعزيز حضور القوميين العرب وصدام حسين. وبشكل مثير للانتباه، لا زال الشيعة يتمسكون بثقتهم في الأمريكان، حيث يعتقدون بأن الأمريكان ملتزمون بشكل غير قابل للنقض، بتعديل ميزان القوى في العراق لمصلحة الشيعة.

بينما تركزت نقطة الخلاف الأخرى لحد الآن، في التصميم البريطاني لإحباط التأثير الإيراني في جنوب العراق. ففي الوقت الذي انشغل فيه الأمريكان بمواجهة المقاومة السنية، اكتشفت بريطانيا وتتبعت عمليات المخابرات الإيرانية والنشاطات الأخرى في الجنوب العراقي. وكثير من عراقيي الجنوب محتارون من تصرف البريطانيين الذين ضغطوا بقوة لوقف الاتصالات مع الإيرانيين، وأخضعوا بعض العراقيين لتحقيقات مطولة حول علاقتهم بالمخابرات الإيرانية.

* التدخل البريطاني في إيران؟

من منظور إيراني، فإن الوجود العسكري البريطاني في جنوب العراق يثير هواجس ومخاوف كثيرة. إذ يخشى الإيرانيون بأن البريطانيين (وهم الحكام الفعليون في جنوب العراق) قد يقلدون سلوك النظام العراقي السابق ويشنون حملة استخبارات شاملة ويدبرون العمليات في محافظة خوزستان الإيرانية الغنية بالنفط. ولهذا عاتبت بعض الدوائر في الحكومة الإيرانية ومجموعات الضغط المتشددة شبه الرسمية، بريطانيا على الاضطرابات والتفجيرات التي هزت خوزستان خلال الربيع الماضي. في حين يرى بعض المراقبين أن الإيرانيين لم يقدموا أي دليل ثابت يشير إلى التدخل البريطاني، وعلاوة على ذلك من الصعب، في نظرهم، إيجاد تفسير لماذا البريطانيون يريدون زعزعة خوزستان، طالما أن عدم الاستقرار في هذه المحافظة يمكن أن يؤثر سلبا على الأوضاع في الجنوب العراقي.

في الوقت نفسه، يرى آخرون أن هناك شكا في أن للبريطانيين، وللمرة الأولى منذ ثورة 1979، موطئ قدم استخبارية في إيران. وهذا ما كان يمكن أن يكون محتملا لولا الوجود العسكري

البريطاني في العراق. بينما معظم نشاط المخابرات البريطانية في خوزستان موجه ضد المخابرات الإيرانية وعمليات التأثير في العراق.